أسس البناء الثقافي للمسلم المعاصر

عبد الله بن محمد صالح العمرو

كلية الشريعة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية،
الرياض، المملكة العربية السعودية

الملخص

تعد الثقافة بمكوناتها العقدية، والفكرية، والقيمية، العنصر الأهم في بناء الإنسان، ففي ضوئها تتحدد نظرته للكون والحياة، والمنهج الذي يسلكه في صلته بهما، وهي التي ترسم له القيم والمثل التي توجه فكره وسلوكه، وغاياته في الحياة.

ويهدف هذا البحث إلى بيان القواعد الرئيسة التي ينبغي للمسلم المعاصر أن يستهدي بها في بناء ثقافته؛ تحقيقاً لأصالته الثقافية، وتسديداً لحركته الفكرية.

وقد جاء هذه الدراسة في مبحثين؛ المبحث الأول «الأساس الإيماني» وهو يتحدث عن ذلك الأساس المتمثل في الإيمان بالله وبالنبوة، والتصور الصحيح للإنسان والكون والحياة. والمبحث الثاني «الأساس المعرفي» وهو يبين أساس البناء الثقافي للمسلم والمتمثل في مرجعية الكتاب والسنة، والتجرد لطلب الحق، والمنهجية العلمية في البحث والنظر، والتفكير وفق أصول وقواعد صحيحة، واعتماد المنهج الصحيح في التعامل مع التراث، والأخذ بالمنهج الصحيح في التعامل مع الخلاف.

وتوصلت الدراسة إلى أن البناء الثقافي في الإسلام يقوم على أسس إيمانية مستمدة من نصوص الوحي المعصوم، وهذا من شأنه أن يمنح المسلم سداداً في فكره، وسلامة في نظرته للأشياء وفهمه لحقائقها.

الكلمات المفتاحية: البناء الثقافي، المسلم المعاصر.

المقدمة

تعد الثقافة بمكوناتها العقدية، والفكرية، والقيمية، العنصر الأهم في بناء الإنسان، ففي ضوئها تتحدد نظرته للكون والحياة، والمنهج الذي يسلكه في صلته بهما، وهي التي ترسم له القيم والمثل التي توجه فكره وسلوكه، وغاياته في الحياة، وهي «الصورة الحية للأمة، فهي التي تحدد ملامح شخصيتها وقوام وجودها، وهي التي تضبط سيرها في الحياة، وتحدد اتجاهها فيها، إنها عقيدتها التي تؤمن بها، ومبادئها التي تحرص عليها، ونظمها التي تعمل على التزامها، وتراثها الذي تخشى عليه الضياع والاندثار، وفكرها الذي تود له الذيوع والانتشار..»[1].

والثقافة الإسلامية تقوم على أصول اعتقادية، ومناهج تشريعية، وقيم خلقية، وقواعد عقلية، تتلاقى وفق منهج متكامل ومتوازن يصلح من شأن الإنسان، ويحقق له إنسانيته المثلى، ويؤهله لحمل الرسالة، والقيام بوظيفة الخلافة في الأرض، ويعمل على إسعاده في الدنيا والآخرة.

ومن مزايا الثقافة الإسلامية أنها توجه المسلم إلى تحرير عقله من آسار الشك والشرك، والخرافة والوهم، وكل ما يعوقه عن عقيدة التوحيد، وهي تبعثه إلى تطهير نفسه وتزكيتها، فلا تستبد به الأهواء، أو تستغرقه الشهوات بما يقعده عن السمو إلى المقامات العالية الرفيعة.

وهي ثقافة تعلي من شأن الحق، وتحفز إلى الخير، وتردع عن الشر، وتبعث المؤمن بها إلى أن يخوض غمار الحياة برؤية واضحة، وبصيرة نافذة تحدد له الموقف السوي – على نور من نصوص الكتاب والسنة – من التيارات والمذاهب والاتجاهات، في وعي تام بما يقبل أو يرد، وما يأخذ وما يدع، بلا جموح أو تفريط، بما يحفظ له مقومات شخصيته، ولا يعيقه عن الانتفاع بمعطيات عصره من أفكار ومنجزات.

ومن مزاياها أيضاً، أنها ترسم المنهج الأمثل في الصلة مع الثقافات الأخرى، صلة قوامها التفاهم، والتواصل في ظل المثل العليا، والقيم الإنسانية المشتركة، مع التمسك بالحق، والدعوة إليه، والاعتزاز بالانتساب إليه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعبد الاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: 64).

والجيل المعاصر يواجه تحديات فكرية من مذاهب وتيارات تسعى إلى استقطابه، وتوهين صلته بدينه، وزعزعة ثقته بمعتقداته وثوابته، بل إن من أبناء المسلمين اليوم من اهتزت علاقتهم بإسلامهم، وصاروا يستمدون منظوماتهم الفكرية من غيره، وقد ينسبون أنفسهم إلى مذهبيات مناوئة للدين كالعلمانية، والليبرالية، وغيرهما.

هدف البحث

يهدف هذا البحث – بحسب جهد كاتبه- إلى بيان القواعد الرئيسة التي ينبغي للمسلم المعاصر أن يستهدي بها وهو يدأب في بناء ثقافته؛ تحقيقاً لأصالته الثقافية،

(1) الخطيب، لمحات في الثقافة الإسلامية (ص13).

وتسديداً لحركته الفكرية.

خطة البحث

جاء هذا البحث في مقدمة وتمهيد ومبحثين، وفي كل مبحث منهما عدد من المطالب، وخاتمة هي على النحو الآتي:

المبحث الأول: الأساس الإيماني

- المطلب الأول: الإيمان بالله وبالنبوة.
- المطلب الثاني: التصور الصحيح للإنسان والكون والحياة.

المبحث الثاني: الأساس المعرفي

- المطلب الأول: اعتماد الكتاب والسنة مرجعين أساسين للمعرفة.
- المطلب الثاني: التجرد لطلب الحق.
- المطلب الثالث: المنهجية العلمية.
- المطلب الرابع: التفكير.
- المطلب الخامس: اعتماد المنهج الصحيح في التعامل مع التراث.
- المطلب السادس: الأخذ بالمنهج الصحيح في التعامل مع الخلاف.

ثم الخاتمة، وفيها أهم النتائج، ثم قائمة المصادر والمراجع.

منهج البحث

سار البحث وفق منهج يقوم على ركيزتين هما:

1. التأصيل: وذلك بالرجوع في دراسة القضايا وبيانها إلى نصوص الكتاب والسنة، مع الاستفادة من جهود علماء الأمة قديماً وحديثاً.
2. الوصف والتحليل: وذلك ببيان أسس البناء الثقافي وتحليلها، وبيان حاجة الشاب المسلم إليها، وتجلية أثرها في صياغة فكره، واستثمار طاقاته بما يحقق أصالته، وينمي إيجابيته في مجتمعه، ونحو أمته.

والله تعالى أسأل التوفيق والتسديد، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تمهيد

معنى الأسس: الأسس جمع أساس، يقال: أسّ، وأسسَ البناء: وضع أساسه.

والأساس: قاعدة البناء التي يقوم عليها، وهو أصل كل شيء ومبدؤه[1].

تعريف الثقافة

في اللغة: قال في القاموس المحيط : «ثَقُفَ، ككَرُمَ وفَرِحَ، ثَقْفاً وثَقَفاً وثَقافَةً صارَ حاذِقاً خَفِيفاً فَطِناً.. وثَقِفهُ، كسَمِعَه: صادَفَه، أو أخَذَه، أو ظَفِرَ به، أو أدْرَكَهُ.. وثَقَّفَه تَثْقيفاً: سَوَّاهُ»[2].

وقال ابن فارس: «ثقف: الثاء والقاف والفاء كلمة واحدة إليها يرجع الفروع، وهو إقامة دَرْءِ الشيء. ويقال ثَقَّفْتُ القناةَ: إذا أقَمْتَ عِوَجَها.. ورجل ثَقِفٌ لَقِفٌ، وذلك أنْ يصيب عِلْمَ ما يَسمعُه على استواء»[3].

وحاصل ما تقدم أنها في أكثر الاستعمالات اللغوية تعني: الحذق والفطنة، وسرعة أخذ العلم، وتقويم المعوج من الأشياء.

في الاصطلاح: ينقل الخطيب في كتابه «لمحات في الثقافة الإسلامية» تعريف الثقافة عن «إدوارد تايلر» 1871 Edward Tylor م، وهو يعد من أبرز تعريفات الثقافة وأقدمها، وأوسعها انتشاراً، حيث يقول عن الثقافة إنها: "ذلك الكل المعقد الذي ينطوي على المعرفة، والعقائد، والفن، والأخلاق، والقانون، والعرف وغير ذلك من القدرات"[4].

وهذا التعريف نلمس فيه ما يلي:

- أن الثقافة وثيقة الصلة بالإنسان؛ عقيدة، وفكراً، وسلوكاً.
- أنها تمثل الروابط المشتركة بين أفراد المجتمع.
- أنها أساس في التمايز بين المجتمعات والأمم.

وثمة تعريفات أخرى كثيرة، ولكنها لم تخل من نوع تأثر بهذا التعريف، أو توافق مع مضمونه، ومنها:

* تعريف المجمع اللغوي، حيث عرف الثقافة بأنها: "جملة العلوم والفنون التي يطلب الحذق بها"[5]، وهذا التعريف يبرز التكامل في المكونات الثقافية، إلا أنه يغفل جانب الخصوصية في الثقافة، وتمايز الأمم والشعوب في ثقافاتها.

* وعرفها مالك بن نبي بأنها: «مجموعة الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعورياً العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه»[6].

وأما الثقافة الإسلامية فيمكن أن يقال في تعريفها: إنها مجموعة المعارف، والقيم، والنظم المستمدة من

(1) ابن منظور، لسان العرب، باب السين، فصل الألف. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، باب السين، فصل الهمزة. مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، باب الهمزة.

(2) الفيروزآبادي، القاموس المحيط (ص1027).

(3) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة (1/382-383).

(4) الخطيب، لمحات في الثقافة الإسلامية (ص 32).

(5) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط (ص98).

(6) ابن نبي، مشكلة الثقافة (ص71).

نصوص الكتاب والسنة، والمستندة إليها، والتي تقوم عليها حياة الفرد والمجتمع.

وأسس البناء الثقافي للمسلم: هي مجموعة المبادئ المؤثرة في صياغة شخصية المسلم بحيث تحدد نظرته إلى ما حوله، وتوجه فكره، وتسدد حركته في الحياة.

المبحث الأول: الأساس الإيماني

المطلب الأول: الإيمان بالله وبالنبوة

الإيمان بالله تعالى وهو اليقين بوجوده، والاعتقاد الجازم بأنه رب كل شيء ومليكه، وأنه الخالق وحده، المدبر للكون كله، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا تتحرك ذرة إلى بإذنه، وأن الخلق مقهورون تحت قبضته[1].

وأنه سبحانه متصف بصفات الكمال، ونعوت الجلال، ومنزه عن كل نقص وعيب، قال تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} (الشورى: 11).

وهذا الكون الواسع بما فيه من إبداع وانتظام وإحكام دليل على وحدانية الله تعالى، وتفرده بالخلق والإيجاد، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: 54). وقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: 22).

وإذا أقر الإنسان بأن الله ربه وخالقه ومصرف شأنه كله، كان لزاماً عليه بمقتضى هذا الإقرار أن يصرف عبوديته لمن خلقه وأنشأه، وألا يشرك معه غيره، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 21-22).

والإيمان بالله تعالى هو الحقيقة الكبرى في هذا الوجود، من أجلها خلق الله الخلق، وبعث الأنبياء وأنزلت الكتب: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: 25).

والإيمان هو أساس الصراع بين الحق والباطل، ومن أجله فتن المؤمنون وأوذي المرسلون: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (العنكبوت: 2-3).

(1) انظر: ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (410/1).

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ (إبراهيم: 13-14).

والإيمان الحق اعتقاد للمبدأ الحق وثبات عليه دون تردد أو ارتياب ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ (الحجرات : 15).

والشاب المسلم متى امتلأ قلبه بالإيمان، واتصل بالله تعالى في جميع أحواله، واستشعر عظمة الله تعالى وقدرته، وأيقن أن الأسباب والمسببات بيد الله تعالى، أضفى ذلك على شخصيته قوة وأمناً وطمأنينة، وتكونت لديه إرادة ثابتة، لأن الإيمان بالله تعالى ذخيرة لا تعرف النفاد في مدها الإنسان بالقوة والصبر والطمأنينة والأمل في معركة الحياة التي يحتدم فيها الصراع بين الخير والشر والحق والباطل.

وحين ينأى الشاب المسلم بنفسه عن هذا النبع الغزير، يعيش في ظمأ دائم، وحين ينصرف عن نوره الوضاء يظل في ظلام دامس، ومن عاش في ظمأ وظلام لا يرجى له أن ينعم بحياة هادئة هانئة، أو يقطع العمر في أمن واطمئنان[2].

والإيمان بالله تعالى وبكماله وحكمته ورحمته ورعايته للكون وتدبيره للعالم وتكريمه للإنسان يستلزم الإيمان بالنبوة، ذلك لأن الله سبحانه الذي خلق الإنسان وسخر له ما في الكون جميعاً لم يتركه يتخبط على غير هدى، بل اقتضت حكمته ورحمته أن يهديه سبيل الآخرة كما هداه سبيل الحياة الدنيا، وأن يهيئ له الزاد الروحي كما هيأ له الزاد المادي، وأن ينزل الوحي من السماء ليحيى به القلوب والعقول كما أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها[3].

قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة: 213).

والأنبياء عباد مصطفون، اختارهم الله تعالى ليكونوا واسطة بينه وبين خلقه في تبليغ رسالاته وإقامة حجته على خلقه، وقد ختم الله عز وجل رسالاته بمحمد صلى الله عليه وسلم قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ (الأحزاب: 40).

(2) انظر: الخطيب، لمحات في الثقافة الإسلامية (ص343).

(3) انظر: القرضاوي، الإيمان والحياة (ص73).

وجعل رسالته للناس كافة قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ (سبأ: 28). وألزم الناس جميعاً التصديق بنبوته واتباعه في أمره ونهيه. قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: 158). وقال صلى الله عليه وسلم : «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»[1].

وما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من علم كله حق يقيني، وهو وحده مصدر المعرفة فيما يتعلق بالله سبحانه، وبمسائل الغيب، وتفاصيل العبادات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما الأمور الإلهية والمعارف الدينية فهذه العلم فيها مأخذه عن الرسول، فالرسول أعلم الخلق بها، وأرغبهم في تعريف الخلق بها، وأقدرهم على بيانها وتعريفها»[2].

وقال ابن القيم: «الحاجة إلى الرسل ضرورية بل هي فوق كل حاجة، فليس العباد إلى شيء أحوج منهم إلى المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولا سعادة ولا فلاح ولا قيام إلا بالرسل، فإذا كان العقل قد أدرك حسن بعض الأفعال وقبحها فمن أين له معرفة تفاصيل شرعه ودينه الذي شرعه لعباده؟ وأين تفاصيل مواقع محبته ورضاه وسخطه وكراهته؟ ومن أين له معرفة تفاصيل ثوابه وعقابه وما أعد لأوليائه ومقادير الثواب والعقاب وكيفيتهما؟ ومن أين له معرفة الغيب الذي لم يظهر الله عليه أحداً من خلقه إلا من ارتضاه من رسله»[3].

المطلب الثاني: التصور الصحيح للإنسان والكون والحياة

الإنسان في العقيدة الإسلامية مخلوق من مخلوقات الله تعالى، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وصوره فأحسن صورته، وخلقه في أحسن تقويم.

وركب الله تعالى فيه العقل الذي تميز به عن سائر المخلوقات المحيطة به، وغرس فيه روح العبودية له تعالى، وجعله خليفة في الأرض، وحمله أمانة إعمارها وإصلاحها، وحدد له فيها أجلاً لا يزيد ولا ينقص، ثم يرجع بعد ذلك في اليوم الموعود إلى الله، خالقه ورازقه ومفيض النعم عليه، حيث يلقى جزاء ما عمل فيصير إلى السعادة الخالدة أو الشقاء[4].

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ. الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ. ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ. وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ (السجدة: 6-11). وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: 4).

والإسلام يقرر بجلاء الغرض الذي لأجله خلق الإنسان، وهو عبادة الله وحده، والعمل بشرعه، وعمارة أرضه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: 56).

والإنسان بطبيعة خلقه وتكوينه لديه استعداد للاستجابة للحق والهدى واستعداد للانسياق مع الضلال والباطل.

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس: 7-10). وقال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى. وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه: 123-124).

وأما الكون فإنه بكل ما فيه من سماوات وأرضين، وأفلاك وجمادات وكائنات حية.. كله من خلق الله تعالى، فهو لم يوجد نفسه، وهو لم يكن نتيجة تطورات أو تغيرات طبيعية فيه، وهو لم يوجد صدفة، وإنما خلقه الله، وأجرى حركته بتقدير سابق، وعلم وحكمة، وسيره عز وجل وفق سنن لا تتغير[5]، لتستقيم بذلك حياة الناس على هذه الأرض، قال تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (الأنعام: 102). وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان: 2).

والكون كله صامته وناطقه، أحياؤه وجماده، ناطق بعظمة الله، منقاد لأمره، مسبح بحمده ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الإسراء: 44).

وعظمة الكون وإتقانه وانتظامه، دليل على وجود الله تعالى ووحدانيته، وعلى سعة علمه وكمال قدرته، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ. أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَارًا

(1) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته.
(2) ابن تيمية، مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (146/13).
(3) ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (ص347).
(4) انظر: الخطيب، لمحات في الثقافة الإسلامية (ص331).
(5) انظر: عثمان، معالم الثقافة الإسلامية (ص21 وما بعدها). وانظر: الزنيدي، حقيقة الفكر الإسلامي (ص55).

وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (النمل: 59-60).

وهذا الكون المحيط بالإنسان هو ميدان نشاطه، يستخدم فيه الإنسان طاقاته وقواه، ويسخره لمنفعته، وتحقيق عبوديته للخالق عز وجل.

وقد أخبر الله تعالى أنه سخر الكون لمنفعة الإنسان، فقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (الجاثية: 13). وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ (البقرة: 29). «أي: خلق لكم – براً بكم ورحمة – جميع ما على الأرض للانتفاع والاستمتاع والاعتبار»[1].

والحياة في الإسلام تمتد في الزمان فتشمل هذه الفترة المشهودة – الحياة الدنيا – وفترة الحياة الآخرة الأبدية. والحياة الدنيا حياة كدح وسعي، وحياة ابتلاء وامتحان من الله تعالى لعباده، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (الملك: 2). وأما الحياة الآخرة فحياة حساب وجزاء، يثاب فيها المطيع ويعاقب فيها العاصي، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا﴾ (آل عمران: 30)، وقال تعالى: ﴿بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: 81).

والإسلام بهذه النظرة يخالف مناهج الماديين الذين لا يؤمنون بالغيب، وينكرون الحياة الآخرة قديماً وحديثاً، فالحياة عندهم ما يشاهدونه من متاع الدنيا، ووجودهم منحصر في هذه الحياة الفانية فحسب، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (المؤمنون: 37).

وقد بين الله تعالى أن الحياة الحقيقية النافعة لا تتم إلا بالاستجابة لله وللرسول صلى الله عليه وسلم، فمن أصم أذنيه عن هذه الدعوى الخيرة فليس ممن يستحق أن يوصف بالحياة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال: 24).

قال ابن القيم رحمه الله: «فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أراذل الحيوانات، فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله ظاهراً وباطناً فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان، ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول، فإن كل ما دعا إليه فيه الحياة، فمن فاته جزء منه، فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول صلى الله عليه وسلم»[2].

ومن مزايا هذا الدين «أنه لم يصور الآخرة على أنها مناقضة للدنيا ومتنافرة معها، بل متصلة بها منسجمة معها، فلم يطلب من الناس حين طلب إليهم الإيمان بالحياة الخالدة أن يولوا ظهورهم لهذه الدنيا، ولم ينفرهم منها، ولا من متعها ولذاتها المشروعة، بل ندد بمن يسلك هذه السبل المنحرفة عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: 32)، ولذلك لم تكن الدعوة إلى التفكير بالحياة الآخرة مخدرة للبشر صارفة لهم عن الأخذ بنصيبهم من متع هذه الحياة، ولا باعثة لهم على القناعة بالبؤس والفقر»[3].

هذه النظرة المتوازنة للحياة بشقيها ذات أثر كبير في توجيه اهتمامات المسلم وبناء طموحاته وتطلعاته، فتراه مجتهداً في إصلاح دنياه، وتحصيل ما ينفعه، مع اهتمامه بأمر آخرته، وبما يحقق له السعادة والنجاة فيها.

ولقد تجلى البرهان العملي لهذه النظرة المتوازنة للحياتين الدنيا والآخرة في ازدهار الحضارة في جميع جوانبها المادية إثر انتشار الإسلام، مع نمو وارتقاء الحياة الروحية والخلقية، ولا سيما في القرون الثلاثة الأولى[4].

هذه التصورات الإيمانية بوضوحها وكمالها، جاءت متسقة مع فطرة الإنسان ومكملة لها، وملبية حاجات الإنسان وتطلعاته ولاسيما في المسائل الغيبية؛ كأصل الكون، وأصل الإنسان وغاية وجوده، وما وراء هذا العالم المادي من عالم غيبي، وما وراء هذه الحياة من حياة أخرى[5].

وبهذا الرصيد العظيم من المعرفة يسمو الشاب المسلم ويزداد يقيناً وثباتاً، واتزاناً في حركته، ورشداً في سعيه، وينجو من القلق والاضطراب، والتفرق في الضلال، والتيه في مسالك الفكر المنحرف.

وإن نظرة متأنية في المجتمع الذي أنشأه الرسول صلى الله عليه وسلم، ونقله نقلة هائلة من مجتمع ممزق متخلف في كل جانب من جوانب حياته، إلى مجتمع متميز في تناسقه، وأخلاقه، وإنسانيته، وإيجابيته، ومتفوق

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص48).

(2) ابن قيم الجوزية، الفوائد (ص88).

(3) المبارك، نحو إنسانية سعيدة (ص57).

(4) انظر: المبارك، نظام الإسلام «العقيدة والعبادة» (ص159).

(5) انظر: الزنيدي، مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي (ص152).

على سائر المجتمعات البشرية على امتداد تاريخها، تؤكد أن الأسس العقدية كانت الركيزة الرئيسة لذلك التغير والتطور.

ولذا فإنه على قدر جلاء هذه التصورات في ذهن المسلم، واستقرارها في قلبه، ورسوخها في نفسه يكون أثرها في صياغة شخصيته، وتوجيه فكره، وتقويم سلوكه، وحفزه إلى المثل العليا، والقيم الصالحة.

المبحث الثاني: الأساس المعرفي

المطلب الأول: اعتماد الكتاب والسنة مرجعين أساسين للمعرفة

تضمنت نصوص الكتاب والسنة - وهما من علم الله تعالى - بيان الحق، وإيضاح سبله ومناهجه، والدعوة إليه بأوضح عبارة، وأكمل بيان، وأقوى حجة.. بينت ذلك وأرشدت إليه بالأدلة النقلية والعقلية، ولذا تخضع لها القلوب، وتطمئن لها النفوس، وتنشرح لها الصدور[1]، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ. قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (يونس: 57-58).

وتعني مرجعية نصوص الكتاب والسنة؛ الاطمئنان إليها، والثقة بصحة ما دلت عليه، واعتمادها منبعاً للقيم والنظم، واليقين الجازم أن ما جاءت به هو الحق الذي لا مرية فيه، وأن توزن بها سائر الأقوال والأعمال فما وافقها فهو حق مقبول وما خالفها باطل لا قيمة له.

واعتماد نصوص الكتاب والسنة مصدراً رئيساً للمعرفة يستلزم الثبات عليها وعدم التنازل عنها بحجة التقارب الثقافي، أو قبول الآخر، أو استجابة لدعوة حوار يراد منه إنزال نصوص الوحي المعصومة منزلة الاجتهادات البشرية والآراء الشخصية المحتملة للخطأ والصواب.

والمسلم وهو يصدر عن نصوص الوحي يدرك ما تتمتع به من كمال ومن شمول لسائر جوانب الحياة البشرية رعاية وتوجيهاً؛ ففي العقيدة – وهي أخبار صادقة عن حقائق ثابتة - جاءت وافية بما يحتاج الناس إلى معرفته عن الله تعالى ووحدانيته، وعن الوحي والرسالة، والبعث بعد الموت، والجزاء الأخروي.. وقد فصلها القرآن أتم تفصيل، وأقام عليها أظهر البراهين مما ينير درب المسلم، ويعصمه من التيه والضلال.

كما فصلت نصوص الوحي القول في العبادات التي يتقرب بها المسلم إلى ربه، ويظهر فيها خضوعه لأمره كمّاً وكيفاً، وزماناً ومكاناً، لأن مبناها على الانقياد والتسليم، ولا مجال فيها للرأي والاجتهاد.

وأمَّا الأحكام العملية المتعلقة بتنظيم معاملات الناس وعلاقاتهم ببعض فلم تفصلها النصوص بل بينت أصولها والقواعد العامة فيها ليكون الناس في سعة في الأخذ بما يلائم بيئاتهم، وما يتفق ومصالحهم، في حدود الأسس والأصول التي وضعتها الشريعة لهم.

ومن لوازم مرجعية نصوص الكتاب والسنة وفاعليتها في البناء الثقافي للمسلم أن يوثق صلته بنصوصهما؛ علماً بها، وفهماً لمدلولاتها، وما تضمنته من الحكم والمصالح والأحكام، وأن يتجاوز علمه بها القدر الواجب معرفته على كل مسلم في العبادات والمعاملات والأخلاق والآداب وسائر التشريعات، وأن يلم بما يتصل بها من قواعد الاستدلال ومناهج الاستنباط، حتى يلج الحياة، وينفتح على آفاقها وهو يملك فكراً ورأياً مؤصلاً يسهم به في تنمية مجتمعه، وحل مشكلاته، ومواجهة التحديات التي تعترض طريقه.

ومن مقتضيات مرجعية النصوص لزوم الفهم الصحيح لها بما يوافق مراد الله تعالى منها لا بحسب الأهواء والأحوال والمصالح.

وحيث جاءت النصوص بلسان عربي مبين، واتجه الخطاب فيها أصالة إلى من عاصروا التنزيل من الصحابة y ، وهم قد عقلوا عن الله عز وجل مراده، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطابه، فلزم اعتماد بيانهم وتفسيرهم لما تلقوه من خطاب الشارع، ولذا كان من القواعد المقررة عند أهل السنة والجماعة أنهم يعتمدون تفسير الصحابة y وفهمهم للنصوص، لأنهم «حضروا التنزيل، وفهموا كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ، واطلعوا على قرائن القضايا، وما خرج عليه الكلام من الأسباب والمحامل التي لا تدرك إلا بالحضور، وخصهم الله تعالى بالفهم الثاقب، وحدة القرائح، وحسن التصرف، لما جعل الله فيهم من الخشية والزهد والورع، إلى غير ذلك من المناقب الجليلة، فهم أعرف بالتأويل، وأعلم بالمقاصد..»[2].

والزعم بأن التقيد بفهم السلف للنصوص من شأنه تعطيل العقل، أو البعد عن الواقع[3]، غلو في النظرة، ومجافاة للحقيقة. وذلك لأن التزام فهم السلف لما جاءت به النصوص هو السبيل لتحقيق العلم الصحيح بها وفهمها وفق مراد الشارع منها، بعيداً عن مسالك التأويل المنحرف لها والشطط في بيانها.

(1) انظر: ابن باز، مجموع فتاوى ومقالات متنوعة (06/4 – 76).

(2) العلائي، إجمال الإصابة في أقوال الصحابة (ص46).

(3) انظر: حنفي، التراث والتجديد (ص281).

وقد وقف التابعون ومن تبعهم بإحسان عند فهم الصحابة y للنصوص فلم يمنعهم ذلك من معايشة واقعهم، ومعالجة مستجداته، وحسن الانتفاع بمعطيات عصورهم وبيئاتهم، بل التفاعل مع الثقافات الأخرى، واستثمار إيجابياتها النافعة، والبناء عليها، مع كشف زيف السلبيات الضارة فيها لوقاية الإنسان من آثارها السيئة على سعادته الدنيوية والأخروية[1].

كما أن دعوى التعويل في فهم النصوص على العقل البشري، وبحسب الظروف والأحوال[2]، مؤداه تجاوز النصوص وإبطال العمل بها، وإحلال ما يوافق الأهواء والشهوات محلها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأما أهل التحريف والتأويل فهم الذين يقولون: إن الأنبياء لم يقصدوا بهذه الأقوال إلا ما هو الحق في نفس الأمر، وإن الحق في نفس الأمر هو ما علمناه بعقولنا، ثم يجتهدون في تأويل هذه الأقوال إلى ما يوافق رأيهم بأنواع التأويلات التي يحتاجون فيها إلى إخراج اللغات عن طريقتها المعروفة، وإلى الاستعانة بغرائب المجازات والاستعارات، وهم في أكثر ما يتأولونه قد يعلم عقلاؤهم علما يقينا أن الأنبياء لم يريدوا بقولهم ما حملوه عليه»[3].

ويؤكد ابن القيم – رحمه الله - أن الواجب على المسلم وهو يتلقى نصوص الوحي: «أن يفهم عن الرسول مراده من غير غلو ولا تقصير، فلا يحمل كلامه ما لا يحتمله، ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان، وقد حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله، بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام بل هو أصل كل خطأ في الأصول والفروع ولا سيما إن أضيف إليه سوء القصد..»[4].

المطلب الثاني: التجرد لطلب الحق

إن من أسس البناء الثقافي في الإسلام البحث عن الحق وتلمسه للالتزام به والعمل بمقتضاه، والمراد بالحق العلم الصحيح الذي يشهد بصدقه الدليل والبرهان[5].

والذي لا ريب فيه أن ثمة حقائق موضوعية ثابتة؛ فحقائق الإيمان والإسلام واضحة وجلية، والحقائق الكونية، والنواميس التي يسير عليها هذا الكون كلها حقائق ثابتة لا تتغير أدركها الباحث أو لم يدركها.

وأجل حق يجب أن تتطلع له النفوس وتجتهد أن تستقيم عليه هو الإيمان بالله تعالى والقيام بحقه والاستقامة على دينه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (الحج: 62).

والنبي صلى الله عليه وسلم والرسل قبله - عليهم الصلاة والسلام- جاءوا بالحق، ودعَوا إليه بأبين الحجج، وبلغوه بعزمٍ وإخلاص، وحذروا من الباطل أشدَّ التحذير، ونهوا عنه، وبينوا سوء عاقبته، قال الله تعالى: ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء: 165).

بل إن من الحق ما لا سبيل إلى معرفته إلى عن طريقهم – كما تقدم- مما يوجب الإيمان بهم، والتسليم لما جاءوا به.

والحق عندما تؤثره النفوس تصلح به، وتعيش في كنفه في هدى وأمن وصفاء؛ تفيض بالخير، وتبذل المعروف، وتسمو عن الرذائل والآثام. كما أن من ثمرات الاستجابة للحقيقة والانفعال بها استنارة العقل والقلب، وتحقيق الاستقرار النَّفسي الذي لا غنى عنه في مسيرة الإنسان الإيجابية في الحياة.

وإذا تنكر الناس للحق وأعرضوا عن هداه فسدت ضمائرهم، وساءت أحوالهم، واختلفت قلوبهم، وعاشوا في قلق واضطراب وفرقة.

وكفى بالحق علواً أن تعترف القلوب به، وتذعن لحقائقه وإن كذبت به الألسن وخالفته الجوارح، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (النمل: 14).

وقد مدح الله تعالى الذين التزموا الحق حينما عرفوه فقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (المائدة: 83).

وذم سبحانه الذين يعرفون الحق ولكنهم لا يستجيبون له في قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 146). كما ذم سبحانه الذين يكتفون من الحق بما يوافق أهواءهم فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً. أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (النساء: 150-151).

والمسلم وهو يدأب في بناء ثقافته عليه أن يجتهد في معرفة الحق واتباعه، متلمساً سبله والطرق الموصلة

(1) انظر: ابن باز، مجموع فتاوى ومقالات متنوعة (272/6 – 273). الزنيدي، السلفية وقضايا العصر (ص107 – 108).
(2) انظر: الحمد، السياسة بين الحلال والحرام (ص 61،177).
(3) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل (10/1).
(4) ابن قيم الجوزية، الروح (62/1-63).
(5) انظر: ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام (20/1، 24).

إليه، وهو متى فعل ذلك بصدق وفق للظفر به، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: 69). كما أن عليه أن يتجرد من الهوى الذي يبعده عن ساحة الحق ويجره إلى مهاوي الباطل، وأن يحذر من الكبر فإن القلب متى هيمن عليه الكبر قسى وترفَّع عن قبول الحق، وحُرم التوفيق، قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف: 146).

كما أن على المسلم وهو يسعى في تأسيس ثقافته وبناء فكره أن يجافي الخائضين بالباطل – قراءة أو استماعاً أو مجالسة- ومن لا يبني قوله على دليل أو برهان، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام: 68). وقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (النساء: 140).

وسبب هذا النهي أن الإقبال على الخائضين والقعود معهم أقل ما فيه أنه إقرار لهم على خوضهم، وإغراء بالتمادي فيه، وأكبره أنه رضا به ومشاركة فيه، والمشاركة في الكفر والاستهزاء كفر ظاهر لا يقترفه باختياره إلا منافق مراءٍ، أو كافر مجاهر.

كما أنه قد ينفق على من يجالسهم بعض كذبهم وافترائهم وشبههم، ولا سيما لمن كان غير راسخ القدم في علم الكتاب والسنة، فينقدح في قلبه ما يصعب علاجه ويعسر دفعه[1].

وعلى من استهدف الحق في الجهد الثقافي أن تكون غايته منه الإصلاح دون التغيير، وذلك أن استهداف الإصلاح يعني التمحيص لما هو قائم وقبول المحمود منه، ونبذ المذموم والبحث عن البديل الصالح عنه، وقد يمتد الإصلاح في بعض الأحيان إلى التغيير عند اقتضاء الحاجة ذلك.

لأن التغيير عندما يكون غاية في ذاته فمقتضاه نبذ الموجود بكافة مكوناته الإيجابية والسلبية، والتوجه إلى البدائل المتاحة أو المقترحة والدعوة إلى الأخذ بها بمختلف مكوناتها النافعة منها والضارة.

واستهداف التغيير هو ما نلمسه اليوم في خطاب دعاة التغريب في المجتمعات الإسلامية، حيث ينطلقون في دعوتهم للتغيير من نقد الممارسات الخاطئة؛ سواء في قضايا المرأة، أم التعليم، أم الحسبة وغيرها، ليتجهوا إلى تعميم النقد إلى كافة ما هو موجود بهدف إسقاطه وتغييره - مع ما فيه من الحق الذي لا يسوغ تجاوزه أو التخلي عنه - وفي المقابل الترويج لبدائل مختلفة، وعادة ما تكون مستمدة من البيئة الغربية، أو وفق قيمها المناقضة – في كثير من الأحيان- لقيم الإسلام وتوجيهاته الشرعية، والمضرة بهوية المجتمع الثقافية، ولحمته الاجتماعية والأمنية[2].

المطلب الثالث: المنهجية العلمية

يعرف المنهج في الفلسفة بأنه «وسيلة محددة توصل إلى غاية معينة»[3]. هذا بوجه عام.

وفي الجانب العلمي بأنه: حركة العقل وفق قواعد محددة، بهدف الوصول إلى معرفة صحيحة[4].

وتبرز أهمية المنهج باعتباره الطريق المأمون الموصل إلى علم صحيح، فسائر العلوم لا سبيل إلى تحصيلها إلا من خلال مناهجها الصحيحة، ولا يعد المرء عالماً ما لم يسلك منهجاً علمياً سليماً يحقق به معلوماته وموضوعاته.

والمناهج تختلف باختلاف العلوم، فلكل علم منهجه الذي يلائمه، ويوصل إلى حقائقه، وبفقد المنهج أو انحرافه يضل الفهم، ويقع الخطأ والضلال. فالمسائل العقدية والقضايا الغيبية، ومناهج العبادة طريق العلم بها الوحي المعصوم؛ فلا سبيل إلى العلم بالله تعالى وشرعه وما يجب له إلا من خلاله.

واستنباط الأحكام الشرعية من النصوص يلائمه المنهج الاستدلالي، والبحث عن طبائع الأشياء المادية وجوهرها والسنن والقوانين الإلهية فيها سبيل براهينه المنسجمة معه هي التجربة والمشاهدة، فهي التي من شأنها أن تكشف عن مدى صدق الفروض والنظريات.

وإذا كان الغالب في الاتجاهات الوضعية أحادية النظرة في قضية المنهج، كما هو الحال لدى أتباع المنهج التجريبي وخاصة الوضعيون الذين حصروا المنهجية في طرائق البحث التجريبي، وحاولوا فرضها على جميع العلوم وليس المادة فحسب، حتى الدين والفكر

(1) انظر: الشوكاني، تفسير الشوكاني المسمى «فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير» (2/ 429). رضا، تفسير المنار، (7/506، 507).

(2) انظر شواهد لذلك في: آل عبد الكريم، المرأة المسلمة بين موضات التغيير وموجات التغرير.

(3) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الفلسفي (ص 195).

(4) انظر: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

والأخلاق، فأنكروا الغيبيات وما وراء الحس[1]، فإن الفكر الإسلامي يقوم على تعدد المناهج بحسب مجالات المعرفة وقدرة العقل البشري على الحركة في ميادينها، مما يثمر معرفة صحيحة موثوقاً بها.

وجلاء هذا الأمر من شأنه أن يحفظ الشاب المسلم من أن يجهد عقله ويبدد طاقته في ضروب من البحث هي فوق قدرته مما يجعله يتخبط ويضل، أو يسلك طرقاً غير صحيحة تعيقه من الوصول إلى علم صحيح.

كما يحفزه ذلك إلى إعمال العقل والبحث والنظر في ميادين المعرفة المتاحة والنافعة؛ فعالم الشهادة ميدان مفتوح أمام الإنسان للتفكير والإبداع، وذلك بأن يتوجه إلى تدبر آيات الله في الأنفس والآفاق، كما أمر الله تعالى بذلك ودعا إليه، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (العنكبوت: 20)، وقال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس: 101)، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ (الأعراف: 185).

والإسلام يربى العقل على الاستقلال في الفهم والنظر، واتباع البرهان ونبذ التقليد غير القائم على الحجة، قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء: 24)، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: 111)، كما يحرر العقل من سلطان الخرافة وأسر الأوهام، فلا يركن إلى الكهانة والشعوذة وغيرهما من أساليب الدجل، وهو بهذا يسهم في بناء المنهجية العلمية الموصلة إلى الحق.

ومما يتصل بالمنهجية العلمية في البناء الثقافي لزوم أن يتجه التلقي في المجال محل الدراسة إلى الراسخين فيه، الموثوقين في بيانه، ممن يقوم نتاجهم الثقافي على أسس علمية وموضوعية، لدعاء الحاجة إلى نقاء المصادر، وسلامة الأفكار، ويتأكد ذلك في مرحلة التأسيس لخطورة تلك المرحلة، وعمق تأثير ما يرد عليها من رؤى وأفكار، وحتى لا يتحمل المتلقي بعض الجهالات أو الضلالات مما قد تؤثر سلباً على فكره وثقافته.

أخيراً فإن المنهجية العلمية تمنح المسلم القدرة على الإسهام في بناء المعارف بمختلف أنواعها، وعدم الاقتصار على تلقيها واستيعابها.

المطلب الرابع: التفكير

التفكير: هو عملية ذهنية تتفاعل فيها المدركات الحِسّية مع المكتسبات العلمية، والخبرة والذكاء، للوصول إلى نتيجة معينة[2].

والتفكير منحة ربانية للعباد يتهيأ لهم من خلاله فهم خطاب الله تعالى وتدبر وحيه، وهو وسيلة لاكتساب المعارف، وإدراك حقائق الأشياء.

وبالتفكير المتجرد من الأهواء ونزوات النفس يتعرف الإنسان على عواقب الأمور والأفعال ونتائجها، فيزداد رشداً في حركته وسعيه.

وقد أمر الله سبحانه عباده بالتفكير في الكون، والنظر في الظواهر الكونية المختلفة، وتأمل بديع صنع الله تعالى، ومحكم نظامه. قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ (العنكبوت: 20). وقال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (يونس: 101). وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ (الأعراف: 185).

والإسلام يجعل للتفكير غاية سامية تتمثل في معرفة الله تعالى، وتعظيمه وإفراده بالعبادة، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: 190-191). وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ. أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (النمل: 60-61).

وعالم الشهادة هو الميدان المفتوح أمام الإنسان للتفكير والإبداع، وذلك بأن يتوجه إلى تدبر آيات الله في الكون، وتعرف سننه في خلقه، وأن يجتهد في تسخير الكون المحيط به لمنفعته، وتحقيق عبوديته لخالقه، وعمارة الأرض وفق منهجه.

وفي المقابل نهى الإسلام عن الخوض أو التفكير في الحقائق الغيبية – كالتفكير في ذات الله وصفاته وحقيقة الروح – لكونها خارجة عن إمكانات العقل وقدراته، وقد كفى الله عباده ما يحتاجون إليه من هذا المجال بالوحي المعصوم، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: 85). وقال صلى الله عليه وسلم: «تفكروا في آلاء الله، ولا تتفكروا في الله

(1) انظر: الزنيدي، حقيقة الفكر الإسلامي (ص126).

(2) انظر: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط (ص 698). وانظر: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الفلسفي (ص51).

عز وجل»[1].

وحيث إن الأفكار كثيراً ما تكون سبباً للخطأ والضلال، فلا يصح أن تؤخذ نتائج التفكير على أنها حقائق مسلمة، بل لا بد من تمحيصها والتأكد من صوابها قبل تبنيها، أو العمل بمقتضاها.

وقد كان من ثمرات التفكير المستنير لدى المسلمين، ظهور العلوم المختلفة، سواء العلوم الشرعية وما يتصل بها، أو العلوم الكونيّة، حتى صار للمسلمين حضارة هي أرقى الحضارات.

وملكة التفكير مفتقرة – كسائر قوى النفس- إلى الرعاية والتنمية والممارسة حتى تصير فاعلة ومبدعة «فكثرة المزاولات تعطي الملكات، فتبقى للنفس هيئة راسخة وملكة ثابتة»[2].

كما ينبغي تحرير العقول من معوقات التفكير، كالتقليد الذي يسد منافذ التفكير، وملازمة المألوفات والرفض لمبدأ التجديد، والوقوف عند مبادئ الفكر وعاجل النظر، وإيثار الدعة والكسل، وغيرها من المعوقات والصوارف.

وإذا كان التفكير الأكثر إيجابية هو ما تأسس على علم راسخ، ومعلومات دقيقة، وخبرة واسعة، فإن على المسلم أن يجتهد في الارتقاء بنفسه، وتعميق ثقافته، وتوسيع معارفه، ولا سيما في الميدان الذي توجه إليه، وتخصص فيه، حتى يكون ما يصدر عنه من فكر إيجابياً يسهم في البناء والإصلاح، وتقديم المشاريع النافعة، وتحليل الظواهر، وحل المشكلات.

كما أن من المتعين اليوم، ولا سيما مع تنامي أثر الثقافات الوافدة، والاتجاهات الفكرية المنحرفة في المجتمعات الإسلامية، تنمية التفكير الناقد لدى الأجيال ليتهيأ لها التمييز بين الأصيل والدخيل، والنافع وغير النافع من الأفكار والآراء والتوجهات.

المطلب الخامس: اعتماد المنهج الصحيح في التعامل مع التراث

إذا تجاوزنا الخلاف في تحديد المراد بالتراث وهل هو شامل لما ورثته الأمة من نصوص الكتاب والسنة، وما خلفه المتقدمون من آثار ثقافية ومدنية، أو هو خاص بمنجزات العقل الفكرية والمادية؟[3] لنخص الحديث عن التراث بالاعتبار الثاني، لأن نصوص الوحي - كتاباً وسنة صحيحة - يجب الإيمان بها وتلقيها بالقبول، واعتقاد عصمتها، ولزوم العمل بمقتضاها، ويلحق بها- بالجملة- ما قاله سلف الأمة في مفهومها وبيان المراد منها، كما تقدم.

وعلى هذا فالحديث عن التراث حديث عن نتاج بشري لعلماء ومفكرين عاشوا في البيئة الإسلامية وخلفوا لنا تراثاً ضخماً في سائر ميادين المعرفة؛ دينية، وخلقية، وأدبية، وتاريخية، وفكرية.. وغيرها.

والتراث البشري – ثقافياً وحضارياً – قابل للنقد والانتقاء لأن منه ما هو حق لا إشكال فيه، ولا يقف عند حدود زمنه، وهو صالح للانتفاع به اليوم كما كان بالأمس، ومنه ما هو باطل لا يسوغ قبوله أو التعويل عليه.

والتراث الإسلامي شأنه شأن كل جهد بشري فيه الغث والسمين، ويتضمن جوانب إيجابية وأخرى سلبية، غير أن الخلفية العقدية السليمة، والمنهجية العلمية – لدى الكثير ممن أسهموا فيه – كان لها أثر ظاهر في متانة هذا التراث، وعمق مباحثه، ودقة تحليلاته، وسلامة نتائجه، ولا سيما ما كان منه موصولاً بنصوص الكتاب والسنة؛ بياناً لها واستنباطاً منها، وتأسيساً عليها[4].

وإذا كان من توجيهات الإسلام الدعوة إلى الانتفاع بما هو حق وصواب في تراث غير المسلمين، ففي الاستفادة من تراث المسلمين ما هو أحق وأولى، ولكن في ضوء ضوابط تعين على تمييز المقبول منه من المردود؛ ومنها:-

- الاعتماد على نصوص الكتاب والسنة في تمحيص التراث، فالنصوص هي المعيار الحق الذي يجب الصدور عنه للكشف عما في المنقولات من معارف وأعمال وأحوال، وما فيها من حقائق وأباطيل، وقد أمر الله تعالى بالتحاكم إليها حال الاختلاف والتنازع، فقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (النساء: 59)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «المذكور عن سلف الأمة وأئمتها من المنقولات ينبغي للإنسان أن يميز بين صحيحه وضعيفه كما ينبغي مثل ذلك في المعقولات والنظريات وكذلك في الأذواق والمواجيد والمكاشفات والمخاطبات فان كل صنف من هذه الأصناف الثلاثة فيها حق وباطل، ولا بد من التمييز في هذا وهذا، وجماع ذلك أن ما وافق كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم الثابتة عنه وما كان عليه أصحابه فهو حق، وما

(1) حسنه الألباني. انظر: الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، الحديث رقم (1788).

(2) ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (284/1).

(3) انظر: الزنيدي، السلفية وقضايا العصر (ص320 وما بعدها).

(4) انظر: العمرو، الأخلاق بين المدرستين السلفية والفلسفية «مسكويه وابن القيم نموذجاً». ففيه شواهد كثيرة لصحة ذلك.

خالف ذلك فهو باطل، فإن الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (النساء: 59)»[1].

وقال رحمه الله: «وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم، فإن الأنبياء - صلوات الله عليهم وسلامه - يجب لهم الإيمان بجميع ما يخبرون به عن الله عز و جل، وتجب طاعتهم فيما يأمرون به، بخلاف الأولياء فإنهم لا تجب طاعتهم في كل ما يأمرون به، ولا الإيمان بجميع ما يخبرون به، بل يعرض أمرهم وخبرهم على الكتاب والسنة فما وافق الكتاب والسنة وجب قبوله، وما خالف الكتاب والسنة كان مردوداً، وإن كان صاحبه من أولياء الله وكان مجتهدا معذوراً فيما قاله، له أجر على اجتهاده لكنه إذا خالف الكتاب والسنة كان مخطئاً وكان من الخطأ المغفور إذا كان صاحبه قد اتقى الله ما استطاع..»[2].

- مراعاة المنهج الملائم في التعامل مع التراث، فما كان من التراث موصولاً بالنصوص؛ شرحاً لها، أو استنباطا منها فشرط قبوله أن يعتمد الأصول والشروط العلمية المعتبرة في التدبر والاجتهاد والاستنباط، وفق ما قرره علماء الأصول، حتى لا تحمل النصوص من الآراء والاجتهادات ما لا تحتمله.

وما كان من التراث يعالج قضايا غير نقلية كالبحث في الرياضيات، والأفلاك، والنباتات، والأدوية ونحوها، فالمنهج في الكشف عنها يعتمد على معقولية الحقائق، وموافقتها لمعطيات العلم الصحيح، فالحقائق العلمية الثابتة تصلح معياراً صحيحاً ودقيقاً لقبول هذا المضمون من التراث أو رفضه.

والاهتمام بالتراث لا يعني الانعزال عن التطورات العلمية ونتاج الحضارة المعاصرة، ففي التراث الإسلامي نفسه ما ينفي الفكر المنغلق ويدفعه، فالمسلمون عندما بنوا حضارتهم انتفعوا بما كان قائماً في ذلك الزمان من علوم ومعارف، وتنظيمات إدارية وغيرها مما لا يتعارض مع معطيات الدين، كما مارسوا المنهج الأمثل في التعامل مع المنقولات، والمتمثل بعرضها على نصوص الشرع وقبول ما لا يتعارض معها، ورفض ما يخالفها ونقده.

وإذا كان هناك من يدعو إلى مقاطعة التراث – بكافة محتوياته- محملاً إياه ما تعانيه المجتمعات الإسلامية اليوم من ضعف وتخلف[3]. فإن الواقع يشهد بتهافت هذه الدعوى إذ إن من ينادون بالرجوع إلى التراث والانتفاع به لا يترددون في نقد الواقع بمعطياته السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية.. وغيرها، ويؤكدون مفارقته في كثير من وقائعه لما يدعون إليه مما صدروا فيه عن التراث.

ويضاف إلى ذلك أن الومضات المضيئة في المجتمعات الإسلامية المعاصرة هنا وهناك، من مواقف، وأعمال، ومشاريع إصلاحية، هي مما بني على معطيات التراث؛ فالترابط الأسري في المجتمعات الإسلامية يسهم في تفوقها على سائر المجتمعات، والنجاح الذي تحقق في بعض الدول في مدافعة التوجهات الغالية فكرياً، كان من خلال معطيات التراث بمناهجه وثوابته وتوجهاته، وصدر ممن يعتمدون التراث الإيجابي للأمة، ويدعون للتمسك به[4].

كما أن من الأسباب الرئيسة لسلامة عدد من المجتمعات الإسلامية من آثار الأزمة المالية العالمية شيوع المعاملات المالية والمصرفية الإسلامية المتوافقة مع ما هو مستمد من التراث الإسلامي[5].

المطلب السادس: الأخذ بالمنهج الصحيح في التعامل مع الخلاف

الخلاف كما يقول الجرجاني: «هو منازعة بين المتعارضين لتحقيق حق أو لإبطال باطل»[6].

والخلاف سنة من سنن الله تعالى في خلقه، فهم مختلفون في عقولهم ومداركهم، كما هم مختلفون في ألسنتهم وألوانهم، وفي طبائعهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود: 118-119).

والخلاف أنواع؛ فمنه الخلاف الذي يمليه اتباع الحق البين لمن ارتضى الباطل ونافح عنه، وهذا خلاف محمود يدفع إليه إجلال الحق، ويقتضيه العقل، ومنه مخالفة المؤمن لأهل الكفر والضلال، وهذا الاختلاف يُحْمَد فيه من ارتضى الحق، وتمسك به، ويُذَم فيه من نازع الحق وأعرض عنه، قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (البقرة: 176). وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ

(1) ابن تيمية، مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (582/11).
(2) المرجع السابق (208/11).

(3) انظر: محمود، تجديد الفكر العربي (ص82).
(4) انظر: الغنيم، جريدة الرياض، مركز محمد بن نايف للمناصحة والرعاية نموذج عالمي فريد في إعادة تأهيل الموقوفين.
(5) انظر: الهمزاني، جريدة الشرق الأوسط، خبراء يؤكدون أن البنوك الإسلامية في مأمن من الأزمة العالمية.
(6) الجرجاني، التعريفات (ص135).

وَمَن يُشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال: 13).

وهذا الاختلافُ ينشأ عنه تباغض وتباين، وقد يقع بسببه تدافع واقتتال، كما قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (البقرة: 253).

ومن الاختلاف ما يكون منشأه التفاوت في الاعتصام بنصوص الكتاب والسنة والعمل بمقتضاها، كمخالفة أهل السنة لأهل البدع ممن يتدينون بما لم يشرعه الله، وهذا الاختلاف من اختلاف التضاد الذي يكون الحق فيه في أحد الأقوال دون الأقوال الأخرى، ومن المتعين في مثل هذا الاختلاف التمسك بالحق الذي يسنده الدليل، ومجافاة ما خالفه من الأهواء والبدع والضلالات.

ومن الاختلاف ما لا يتبين فيه الصواب لأن منشأ القولين هو محض الاجتهاد، حيث لم يُبْن أي من القولين على دليلٍ يعيّن أنه هو الصواب، فيبقى القولان سائغين، وكل من المختلفين محمود على اجتهادهِ مأجور عليه، كما قال صلى الله عليه وسلم: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»[1].

وفي باب الأفكار التي تتباين فيها وجهات النظر، وتختلف فيها الآراء، ثمة معايير يسترشد بها طالب الحق للتمييز بين ما يقبل منها – لاحتماله – وما يستحق أن يرد، فمن ذلك:-

- ألا تكون الأفكار مناقضة لصريح الوحي – من قرآن أو سنة صحيحة - مما هو قطعي الدلالة، لأن نصوص الوحي داعية إلى الحق، ومقتضية له، فما خالفها ليس من الحق، ومن دعا إلى خلافها فليس في مسلكه ما ينبئ عن حرصه على الحق أو بحثه عنه، كالأفكار الداعية إلى صرف شيء من العبادة لغير الله تعالى، أو التعبد لله تعالى بما لم يشرعه، أو التي تهزأ بالدين، وتسخر من بعض الأحكام الشرعية، فهذه ونحوها من الفكر المنحرف الذي يتعين رفضه.

- ومنها ألا تخالف الأفكار ما تقتضيه العقول السليمة التي يتحاكم الناس إليها، فإن في الفطر السليمة والعقول المستقيمة ما يدعو إلى الخير ويستحسن الفضائل ومكارم الأخلاق، ويستقبح أضدادها من الرذائل، ومساوئ الأخلاق، ولذا يمقت الناس على اختلاف بيئاتهم وأزمانهم الأفكار التي تزهد الناس في فعل الخير وبذل المعروف، أو تمجد الظلم، أو تحض على الفساد والاعتداء على أعراض الناس وأموالهم، أو تزين الكذب، أو تدعو إلى التبذير وإضاعة المال.

- ومنها بعد الأفكار عن الموضوعية، حيث لا يتم عرض حقائق الأشياء وبيانها على ما هي عليه دون أن يشوب ذلك أهواء، أو مصالح، أو تحيزات، أو بناء على الأوهام والظنون، مما يعيق الفكر عن إصابة الحق فيما يصدر عنه.

وبالجملة فالفكر متى تضمن مخالفة للنصوص، أو ما تقتضيه العقول السليمة، أو ابتعد عن الموضوعية فلا يعول عليه، فضلاً عن أن يدعى إلى تقديره واحترامه.

وأما الفكر السالم من هذه النقائص، ولم يوجد ما يقضي ببطلانه، فإن من المتعين النظر إليه بعين التقدير والاعتبار، لاحتمال الحق فيه، ومن المهم أن يكون لدى المسلم قدر من المرونة في التعامل مع الناس وتقدير آرائهم ومواقفهم المخالفة له في مثل هذا النوع من الأفكار، لأنه إذا كان لا يسوغ قبول الأقوال بلا براهين، فكذلك لا يجوز ردها، أو التهوين من شأنها بلا دليل ولا برهان.

الخاتمة

بعد هذه الدراسة لأسس البناء الثقافي للمسلم المعاصر، أجمل أبرز نتائج هذا البحث في النقاط الآتية:-

1. أن البناء الثقافي في الإسلام يقوم على أسس إيمانية مستمدة من نصوص الوحي المعصوم، وهذا من شأنه أن يمنح المسلم سداداً في فكره، وسلامة في نظرته للأشياء وفهمه لحقائقها.
2. أنه لا سبيل إلى الانتفاع بالنصوص واستثمارها في البناء الثقافي إلا بالإيمان بها، وفهمها وفق فهم سلف الأمة، بعيداً عن مناهج التأويل المذموم المؤدي إلى تجاوزها أو تعطيلها.
3. أن الإسلام يربي العقل على الاستقلال في الفهم والنظر، ويدعو إلى اتباع البرهان ونبذ التقليد غير القائم على الحجة، كما يحرر العقل من سلطان الخرافة وأسر الأوهام، وهو بهذا يسهم في بناء المنهجية العلمية الموصلة إلى الحق.
4. أن على المسلم أن يعتمد الدليل والبرهان فيما يقبل أو يرد في سائر ما يرد عليه من معارف وأفكار وآراء.
5. أن التراث بوصفه نتاجاً بشرياً فيه المقبول والمردود،

(1) أخرجه البخاري، في الاعتصام بالكتاب والسنة، رقم (7352)، ومسلم، في باب بيانِ أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، رقم (4584).

والنافع وغير النافع، وعليه فإنه لا يسوغ اعتماده بإطلاق؛ وإنزاله منزلة نصوص الوحي المعصوم، كما لا يسوغ التنكر له لما تضمنه من علوم ومعارف وحكم تتجاوز حدود زمنها، بل المتعين تمحيصه وفق نصوص الشرع، وصريح المعقول، وحقائق العلم الحديث؛ فما زكته فهو المقبول، وما خالفها فمردود لا قيمة له.

6. أن ما كان من الخلاف سببه مجافاة الحق الواضح والتنكر له ومراغمته، فإنه لا وجه لقبوله فضلاً عن احترامه أو التعويل عليه.

7. أن الأخذ بالمبادئ التي جاء بها الإسلام في البناء الثقافي هو – وحده - السبيل إلى توجيه حركة المسلم، وبعثه إلى أن يخوض غمار الحياة برؤية واضحة، وبصيرة نافذة، وعزيمة صادقة.

المراجع

ابن باز، عبد العزيز بن عبد الله. جمع: الشويعر، محمد ابن سعد. 1423هـ. مجموع فتاوى ومقالات متنوعة. بدون رقم الطبعة، دار المؤيد، الرياض، المملكة العربية السعودية.

ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني. تحقيق: سالم، محمد رشاد. 1402هـ. درء تعارض العقل والنقل. بدون رقم الطبعة، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية.

ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني. جمع: النجدي، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي الحنبلي. د.ت. مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية. بدون رقم الطبعة، دار العربية، بيروت، لبنان.

ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد الظاهري الأندلسي. 1400م. الإحكام في أصول الأحكام. بدون رقم الطبعة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. تحقيق: هارون، عبد السلام محمد. 1392هـ. معجم مقاييس اللغة. بدون رقم الطبعة، بدون بيانات الناشر وبلد النشر.

ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي. تحقيق: الفقي، محمد حامد. 1393هـ/1973م. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي. د.ت. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة. بدون رقم الطبعة، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي. د.ت. الفوائد. بدون رقم الطبعة، دار الفكر، بيروت، لبنان.

ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي. تحقيق: عبد الحميد، محمد محيي الدين. 1397هـ. الروح. بدون رقم الطبعة، دار الفكر، بيروت، لبنان.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري. د.ت. لسان العرب. بدون رقم الطبعة، دار صادر، بيروت، لبنان.

ابن نبي، مالك. 1401هـ. مشكلة الثقافة. بدون رقم الطبعة، دار الفكر، دمشق، سوريا.

آل عبد الكريم، فؤاد بن عبد الكريم. 1425هـ/2004م. المرأة المسلمة بين موضات التغيير وموجات التغرير. الطبعة الأولى، طبعة مجلة البيان، الرياض، المملكة العربية السعودية.

الألباني، محمد ناصر الدين. 1399هـ. سلسلة الأحاديث الصحيحة. بدون رقم الطبعة، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي. د.ت. الجامع الصحيح المختصر المعروف بـ«صحيح البخاري». بدون رقم الطبعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

الجرجاني، الشريف علي بن محمد بن علي. تحقيق: عميرة، عبد الرحمن. 1407هـ. التعريفات. بدون رقم الطبعة، عالم الكتب، بيروت، لبنان.

الحمد، تركي. 2000م. السياسة بين الحلال والحرام. بدون رقم الطبعة، دار الساقي، بيروت، لبنان.

حنفي، حسن. 1980م. التراث والتجديد. بدون رقم الطبعة، بدون بيانات الناشر، القاهرة، مصر.

الخطيب، عمر عودة. 1397هـ. لمحات في الثقافة الإسلامية. بدون رقم الطبعة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

رضا، محمد رشيد. د.ت. تفسير المنار. بدون رقم الطبعة، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

الزنيدي، عبد الرحمن بن زيد. 1415هـ. حقيقة الفكر الإسلامي. بدون رقم الطبعة، دار المسلم، الرياض، المملكة العربية السعودية.

الزنيدي، عبد الرحمن بن زيد. 1418هـ. السلفية وقضايا العصر. بدون رقم الطبعة، دار إشبيليا، الرياض، المملكة العربية السعودية.

الزنيدي، عبد الرحمن بن زيد. 1421هـ. مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي. بدون رقم الطبعة، مكتبة المؤيد، الرياض، المملكة العربية السعودية.

السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. تحقيق: اللويحق، عبد الرحمن بن معلا. 1420هـ. تفسير ابن سعدي المسمى «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان». الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

الشوكاني، محمد بن علي بن محمد. 1393هـ. تفسير الشوكاني المسمى «فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير». بدون رقم الطبعة، دار الفكر، بيروت، لبنان.

عثمان، عبد الكريم. 1413هـ/1992م. معالم الثقافة الإسلامية. الطبعة السادسة عشر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

العلائي، صلاح الدين خليل. تحقيق: الأشقر، محمد سليمان. 1407هـ. إجمال الإصابة في أقوال الصحابة. بدون رقم الطبعة، مركز المخطوطات والتراث، الكويت.

العمرو، عبد الله بن محمد. 1427هـ. الأخلاق بين المدرستين السلفية والفلسفية «مسكويه وابن القيم نموذجاً». بدون رقم الطبعة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية.

الغنيم، محمد. 1431هـ/2010م. مركز محمد بن نايف للمناصحة والرعاية نموذج عالمي فريد في إعادة تأهيل الموقوفين. جريدة الرياض، العدد (15334)، الجمعة 6 رجب/18 يونيو، تاريخ الاسترجاع 1431/10/13هـ على الرابط الإلكتروني:

<http: //www.alriyadh.com/535866>.

الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. 1407هـ. القاموس المحيط. الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

القرضاوي، يوسف. 1399هـ. الإيمان والحياة. بدون رقم الطبعة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

المبارك، محمد. 1381هـ. نحو إنسانية سعيدة. بدون رقم الطبعة، بدون بيانات الناشر، دمشق، سوريا.

المبارك، محمد. 1405هـ. نظام الإسلام «العقيدة والعبادة». بدون رقم الطبعة، دار الفكر، بيروت، لبنان.

مجمع اللغة العربية بالقاهرة. 1399هـ. المعجم الفلسفي. بدون رقم الطبعة، عالم الكتب، بيروت، لبنان.

مجمع اللغة العربية بالقاهرة. د.ت. المعجم الوسيط. بدون رقم الطبعة، المكتبة الإسلامية، تركيا.

محمود، زكي نجيب. 1993م. تجديد الفكر العربي. بدون رقم الطبعة، دار الشروق، القاهرة، مصر.

مسلم، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري. تحقيق: عبد الباقي، محمد فؤاد. د.ت. صحيح مسلم. بدون رقم الطبعة، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء، الرياض، المملكة العربية السعودية.

الهمزاني، محمد. 1429هـ/2008م. خبراء يؤكدون أن البنوك الإسلامية في مأمن من الأزمة العالمية. جريدة الشرق الأوسط، العدد (10892)، الثلاثاء 22 رمضان/23 سبتمبر، تاريخ الاسترجاع 1431/10/13هـ على الرابط الإلكتروني: -

<http: //archive.aawsat.com/details>.

Cultural Foundations of Contemporary Muslim

Abdullah Mohammed Saleh Al-Amro

Imamu Muhammad bin Saud Islamic University
Sharia College in Riyadh

ABSTRACT

Culture, through its components, i.e., dogmatic, intellectual and values, is the most important element in raising human. In the light of culture, human view of the universe, life, along with the way he approached them is determined. Moreover, culture defines the values and ideals that guide his thought, behavior, and goals in life.

This research aims to state of the main rules that the contemporary Muslim should follow in order to create his culture, achieve cultural originality, and to direct his intellectual behavior.

This research includes two sections; the first discussed the fiducial basis, represented in faith in Allah, in Prophet Hood, in addition to the right perception of human, the universe, and life.

The second section demonstrates the cognitive bases of Muslim cultural construction that refers to the Qur'an and the Sunna. These bases also include dedication in asking for rights, scientific methodology in research and consideration, thinking according to valid principles, adopting of the correct approach in dealing with heritage, and proper dealing with conflicts.

The study concluded that cultural foundation of Islam depends on fiducial bases originated from Islamic revelations. This grants Muslims the right intellectual direction and correct his vision of subjects and facts.

Key Words: Contemporary Muslim, Cultural foundations.